الخاتمة

كانت هذه المادة عن البناء الفكري، ويتوقع أن يكون القارئ قد لاحظ أن البناء الفكري هو بناء يتصف بالتنظيم والتماسك، والاحتكام إلى مرجعية كلية تعطيه وصفاً محدداً وتميزه عن أوصاف أخرى. وأنَّ هذا البناء رغم تماسكه واستقراره فإنَّه ليس ثابتاً على حالة معينة من الكم والكيف، وإنما يتغير باستمرار في الاتساع والعمق، وربما تفقد بعض العناصر قيمتها فيستبدل غيرها بها. ويتوقع أن يكون القارئ قد لاحظ أن موضوع البناء هو الفكر، وهو خاصية للإنسان المخلوق كرّمه الخالق بها، وهي أمانة عند كل إنسان، عليه أن يرعاها حق رعايتها، بما يلزمها من متطلبات النمو السليم والتطوير والتحسين.

وعندما يصل القارئ إلى هذا القدر من القراءة يحق له أن يسأل، ما الذي قرأه؟ وعلى الأغلب سوف يعيد النظر في عنوان المادة المقروءة، وربما نظر في قائمة موضوعات هذه المادة، ليتذكر العناصر الفكرية الكبرى (التضاريس) التي تضمنتها خريطة الأفكار التي كان يقرأها. وربما أعاد قراءة مادة بعض العناوين الفرعية، ليتذكر من جديد ملامح عنصر من العناصر الفكرية للموضوع. وسوف يخطر ببال القارئ أن يتحدث عن موضوع القراءة إلى بعض أهل بيته أو أحد معارفه، فيحدد ما الذي سيقوله، وما الأسئلة التي ربما يسألها، والملحوظات التي سوف يذكرها.

لكنَّ من المؤكد أنَّ القارئ سوف يتذكر شيئاً لم يقرأه، يتذكر بعض العناوين التي كان يبحث عنها، ولكنَّه لا يذكر أنَّه قرأها في هذه المادة، وربما يعيد النظر

في الخريطة من جديد، ليتأكد أنَّ تلك العناوين لم تكن موجودة. ومن ثَمّ سوف يحدد لنفسه مهمة جديدة للبحث عن مواد أخرى للقراءة.

وسوف يقفز إلى ذهن القارئ مواد أخرى في الموضوع كان قد قرأها من قبل، وسوف يتفكر في وجوه الشبه والاختلاف بين هذه المادة التي انتهى من قراءتها للتوّ وتلك المواد الأخرى، وفي ضوء ما يتذكره من وجوه الشبه والاختلاف سوف يقوم بعملية تصنيف ليضيف هذه المادة إلى فئة من فئات المواد الأخرى، فهذه المادة مثلاً هي فكر إسلامي، لكنه أقرب إلى أن يقع ضمن مدرسة فكرية إسلامية محددة، وسوف يتذكر أسماء الكتاب والمؤلفين والمفكرين الذين ينتمون إلى هذه المدرسة.

هذه أمثلة على التداعي الذهني، وحركة العقل، ومرور الخواطر، وجَوَلان الفكر، وكلها صور من النشاط العقلي البشري الذي يعبر عن الحالة الصحية في توظيف القدرات الفكرية للإنسان، وأيّ ضعف في ممارسة هذا النشاط، يجده القارئ في نفسه، سوف يكون ناتجاً عن خلل في تنظيم عمليات التفكير، يحتاج إلى معالجة. لكن من حسن حظ القارئ الذي يكتشف هذا الخلل أن يعلم أن الوعي على وجود الخلل هو حالة صحية في حد ذاتها، فهذا الوعي الفكري هو الخطوة الأولى في معالجة الخلل، وسوف تكون خطوة أولى إذا تلتها خطواتٌ أُخَر.

يتوقع من القارئ أن يتعلم شيئاً عن مقدار الجذب الذي تمثله المواقع الفكرية التي يشغلها بعض أفراد النخبة في المجتمع، والمستويات المختلفة من البناء الفكري التي تتميّز بها فئات النخبة، والخصائص التي تتميّز به الغالبية العظمي من الناس، الذين يصعب تصنيفهم في أي موقع. وسوف يتعلم أن الحالة الطبيعية في المجتمع أن تختلف مستويات البناء الفكري لدى الأفراد والفئات، وأن هذا التفاوت أمر محمود، فلكل فرد مستوى فكري معين، ولكل فرد دوره في المجتمع، وتتكامل هذه الأدوار للقيام بالوظائف الفكرية في المجتمع.

ويتوقع أن يتساءل القارئ عن موقع بنائه الفكري بين هذه الصور التي قرأها عن البناء الفكري. سوف يتساءل: ما الذي يملكه من أفكار، وأي المدارس الفكرية هو أقرب إليها؟ وما معالم الخريطة الفكرية التي تمثّل مجمل أفكاره وعناصرها الكبرى؟ وما العوامل التي أثرت في تشكل هذه الخريطة؟ وكيف أثرت هذه العوامل ومتى، وبأي مقدار؟ وربما يميل إلى تحديد الموقع الذي يريد أن يكون فيه بعد الآن: موقع العالِم أو المثقَّف أو الداعية أو المصلح أو الفيلسوف أو المفكِّر.

ويتوقع من القارئ أن يتساءل كذلك عن العلاقة بين الفكر والسلوك، وعن المعنى الذي يشير إليه اتساقهما، والمعنى الذي يشير إليه الاختلاف بينهما. وسوف تقفز إلى ذهنه نماذج من الشخصيات العامة في حالتي الاتساق أو التناقض، وسوف يتخيل الحالة الذي يختارها لنفسه بين الحالتين.

ويتوقع أن يتساءل القارئ عن محددات شخصية الفرد الإنساني، وموقع البناء الفكري في هذه الشخصية، بالمقارنة مع البناء العاطفي والوجداني لهذه الشخصية. هل هما بناءان مختلفان، وكيف يؤثران في شخصية الفرد؟ وما علاقة الموضوعية والذاتية في كل من البناءين؟

إذا استطاع هذا الكتاب أن يثير هذه الأسئلة وأمثالها لدى القارئ، وحركته للبحث عن إجابات عنها، فقد حقق الكتاب بعض أهدافه.

والحمد لله رب العالمين.